

الباب الثاني

مقدمة

التشيع والأدب

جاء الأدب الشيعي صورة صادقة لما وقع على العلويين من اضطهاد . فقد قتل عليّ ، وأصبح آله يُستذلون ويُضامون ، ويُقصون ويمتهنون ، ويحرمون ويقتلون ، ويخافون ولا يأمنون على دماءهم وولياتهم . فقتل أنصار عليّ في كل قطر وكل مصر في عهد معاوية ، وعذبوا تعذيباً مرا ، قطعت منهم الأيدي والأرجل على الظنة . من ذكر بحب آل عليّ سجن أو نهب ماله أو هدمت داره . وكان البلاء يشتد على العلويين يوماً بعد يوم . فقتل الحسين على صورة مؤلمة في كربلاء ، ثم جاء الحجاج فبطش بهم بطش عزيز مقتدر حتى أصبح اتهام الرجل بالزندقة والكفر أهون عليه بكثير من اتهامه بحب آل عليّ . فقد أفتن الأمويون في طرق الإعدام ، فمن دفن للناس وهم أحياء ، إلى صلب على جذوع النخل ، إلى حرق ، إلى حبس ومنع الهواء والأكل والماء عن المحبوس حتى يقضى نحبه جوعاً وعطشاً . كانوا يرتكبون هذه الآثام في وحشية لم يعرف التاريخ لها مثيلاً فيقطعون رأس الابن أو الزوج ويبعثون بهذا الرأس إلى الأم أو الزوجة ويلقونه في حجرها . وكانوا يصلبون

الناس ويتركونهم حتى تنبعث منهم الروائح الكريهة ، ثم يحرقونهم ويذرونهم في الهواء . وسب الأمويون عليا على المنابر واخترعوا له المثالب والنقائص . وحرموا على الناس ذكر اسمه أو اسم أحد من أبنائه كما حرموا على الناس أن يسموا أبناءهم عليا أو حسنا أو حسينا . ثم جاء دور بني العباس ، وكانوا للعلويين أشد كرها ، وأعظم بغضا ، فأمعنوا فيهم قتلا وحرقا ، واضطهادا وتعديا . فأمر المنصور فحمل إليه من المدينة كل من كان فيها من العلويين مقيدين بالسلاسل والأغلال ، ولما وصلوا إليه وكان بالهاشمية ، حبسهم في سجن مظلم لا يعرف فيه ليل من نهار . وكان إذا مات واحد منهم ترك معهم . وأخيرا أمر بهدم السجن عليهم . وفي ذلك يقول أحد شعراء الشيعة :
والله ما فعلتُ أُميَّةُ فيهمُ مِعْشَارَ ما فَعَلَتْ بنو العباسِ
وقال أبو فراس :

مانال منهم بنو حرب وإن عَظُمَتْ تلكَ الجرائمُ إلا دونَ نَيْلِكُمُ
وقال الشريف الرضى :

ألا لَيْسَ فَعْلُ الأولينَ وإنْ عَلَا عَلَى قَبْحِ فَعْلِ الآخرينَ بِزَائِدٍ
وقد بالغ الرشيد في التشكيل بالعلويين . ولم يخف الضغط عليهم إلا حين ضعفت الخلافة العباسية وأصبح السلطان الفعلي في الممالك الإسلامية للترك والديلم وبني حمدان .

كل هذه النكبات قد أثرت تأثيرا كبيرا في الأدب الشيعي نثره وشعره . وإنا مبينون ما تركته من أثر في دولة النثر أولا ثم في دولة الشعر ثانيا .

الفصل الأول

في النشر

(١) الخطابة

لما قام الخلاف بين علي ومعاوية شرع كل منهما يخطب في جنوده وأنصاره محرضا إياهم على القتال والكفاح ، فراجت سوق الخطابة رواجاً عظيماً ، وارتفع شأنها إلى درجة لم يسبق لها مثيل ، وكثر الخطباء في كل قطر من علويين وأمويين وخوارج ، كل يؤيد وجهة نظر الحزب الذي ينتمي إليه ، وكل يحرض على أعدائه ويطعن فيهم ويرميهم بكل نقيصة . نهضت الخطابة في كل صقع : في الشام وفي العراق وفي مصر وفي الحجاز وفي اليمن . وامتاز أسلوبها بالقوة والمتانة وكثرة الاستشهاد بالقرآن والحديث والاقتباس من الشعر والأمثال فضلاً عن البراهين والأدلة التي يسوقها كل خطيب ليدعم بها رأيه ويؤيد مذهبه . وكانت الخطب . ولا سيما خطب العلويين تفيض بالعواطف وتزخر بالحماسة وتطفح بالتحريض على القتال والنزال . فيها تهديد بغضب الله على كل من يتخلف عن الجهاد وفيها ترغيب بدخول الجنة لمن يجاهدون ويكافحون . وقد بلغت في الطول درجة لم تصل إليها من قبل .

ومن أشهر خطباء ذلك العصر الإمام علي الذي امتاز بمضاء لسانه ، وعلو بيانه ، وقوة منطقته ، وسطوع حجته ، ومواتاة البلاغة له في خطبه

وكتبه ورسائله وسوابغ حكمه وجوامع كلمه . قال الشريف الرضى فى مقدمة نهج البلاغة يصف عليا : « كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها ، ومنشأ البلاغة ومولدها ، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها وعنه أخذت قوانينها ، وعلى أمثلته هذا كل قائل وخطيب ، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ ، ومع ذلك فقد سبق وقصروا ، وقد تقدّم وتأخروا ، لأن كلامه عليه السلام الكلام الذى عليه مسحّة من العلم الإلهى ، وفيه عبقة من الكلام النبوى . » ومن بليغ خطبه قوله .

« أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصة أوليائه ، وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة ، وجنته الوثيقة . فمن تركه رغبة عنه ، ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء ، ودبّث بالصغار والقماء ، وضرب على قلبه بالإسهاب ، وادبّل الحق منه بتضييع الجهاد . وسيم الخسف ومنع النصف . ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا ، سرا وإعلانا ، وقلت لكم اغزوه قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلوا فتوا كلم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات ، ومليكت عليكم الأوطان . وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار ، وقد قتل حسان البكرى وأزال خيلكم عن مسالحها . ولقد بلغنى أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والأخرى المعاهدة فينزِعُ حُجْلَهَا ^(١) وقلْبُهَا ^(٢) ، وقلاندها ورعْشَهَا ^(٣) ، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع ^(٤) والاسترحام ، ثم انصرفوا وافرین ، مانال رجلا منهم كلم ، ولا أريق لهم دم . » وهى طويلة يراها القارىء فى كثير من

(١) الحجل بالكسر الخلل . (٢) السوار .

(٣) واحده رعشة بالفتح وهو القرط . (٤) تردد الصوت بالبكاء .

كتب الأدب لا سيما البيان والتبيين للجاحظ والكامل للبرد . وأنت ترى أن عليا بدأ خطبته بالترغيب في الجهاد الذى هو باب من أبواب الجنة وطريق يؤى إلى النعيم المقيم ، وترك هذا الجهاد يسوق الناس إلى الذل والعبودية . ثم أخذ يستنفر قومه إلى الحرب فذكر أن عسكر أخى غامد قد دخلت الأنبار وارتكبت فيها من الجرائم شيئا كثيرا . قتلت الرجال وحرقت الدور ودمرت الأحياء . ثم وضع على يده على أهم ما يشير العربى وهو العرض فأخبرهم أن الرجل من هؤلاء الغزاة كان يدخل على المرأة فيسلبها حليها وينصرف آمنا مطمئنا .

أما الأمويون فكانوا يملئون خطبهم بالشتائم والسباب والمطاعن والمثالب فى علي وآل بيته . وكان الخطباء فى المساجد يختمون خطبة الجمع بلعن عليّ والترحم على عثمان والاستغفار له ، وإطراء شيعة . روى الطبرى أن معاوية بن أبى سفيان لما ولى المغيرة بن شعبه الكوفة فى جمادى سنة ٤١ هـ ، دعاه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال . . . أردت إيصاءك بأشياء كثيرة ، فأنا تاركها اعتمادا على بصرك بما يرضينى ويسعد سلطانى ، ويصلح به رعيتى ، ولست تاركا إيصاءك بخصلة ، لا تتحَمَّ^(١) عن شتم عليّ وذمه ، والترحم على عثمان والاستغفار له ، والعيب على أصحاب عليّ والإقصاء لهم وعدم الاستماع منهم . . .^(٢) قال الطبرى : إن المغيرة أقام عاملا على الكوفة لمعاوية سبع سنين وأشهرها وهو من أحسن شىء سيرة وأشدّه حبا للعافية ، غير أنه لا يدع ذم عليّ والوقوف فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم ، والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له والتزكية لأصحابه . .

(٢) الرسائل

ظهر أثر التشيع واضحاً جلياً في الرسائل التي تبودلت بين علي ومعاوية وبين الحسن ومعاوية وبين زينب بنت علي وبين يزيد ، وبين محمد بن عبد الله وبين المنصور ، وبين غير هؤلاء من علويين وأمويين أو علويين وعباسيين . وقد امتازت هذه الرسائل بطولها ، وبقوة أسلوبها ومتانة تركيبها . ترى فيها الحجج القوية ، والبراهين الساطعة ، والأدلة الواضحة التي يأتي بها كاتبها تأييداً لما يقول ، وطعناً على صاحبه واسقاطاً لما يدعى في الخلافة ، واطهاراً لنقائص الخصم ومثالبه . فيها ترغيب وتهديد ، ووعد ووعد .

وامتازت هذه الرسائل كذلك بكثرة الاقتباس من القرآن والحديث والحكم والأمثال والشعر . ومن أمثلة ذلك أن المنصور بعث رسالة إلى محمد بن عبد الله بالمدينة ، وكان قد خرج عليه ، وأعلن الحرب ضده — يرغبه ويرهبه ، وينذره عاقبة الخروج والعصيان ، ويبدل له الأمان إن تاب وعاد إلى الجماعة . فكتب إليه محمد بن عبد الله هذا الكتاب

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله المهدي محمد بن عبد الله إلى عبد الله بن محمد . طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستخفي نساءهم ، إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في

الأرض ، ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض .
ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . وأنا أعرض
عليك من الأمان مثل الذي عرضت على ، فإن الحق حقنا ، وإنما ادعيتم
هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا ، وإن آبائنا عليا
كان الوصي ، وكان الإمام . فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ ثم
قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا ،
وشرف آبائنا ؛ لسنا من أولاد اللعناء ولا الطرداء ، ولا الطلقاء .
وليس يمت أحد من بني هاشم بمثل الذي نمت به من القرابة والسابقة
والفضل ، وإننا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو
في الجاهلية ، وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم . إن الله اختارنا
واختار لنا ، فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السلف
أولهم إسلاما عليّ ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة ، وأول من
صلى القبلة ، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن
المولدين في الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة : وإن هاشما
ولد عليا مرتين وإن عبد المطلب ولد حسنا مرتين وإن رسول الله صلى
الله عليه وسلم ولدني مرتين من قبل حسن وحسين . وإني أوسط بني
هاشم نسباً ، وأصرحهم أما وأباً ، لم تعرق في العجم ، ولم تتنازع في
أمهات الأولاد . فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية
والإسلام حتى اختار لي في النار ، فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة
وأهونهم عذاباً في النار ، وأنا ابن خير الأخيار ، وابن خير الأشرار ،
وابن خير أهل الجنة ، وابن خير أهل النار . ولك الله على إن دخلت في

طاعتي . وأجبت دعوتي . أن أؤمنك على نفسك ومالك ، وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله ، أو حقاً لمسلم أو معاهداً ، فقد علمت ما يلزمك من ذلك ، وأنا أولى بالأمر منك ، وأوفى بالعهد ، لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجلاً قبلي : فأى الأمانات تعطيني ؟ أمان ابن هُبيرة ؟ أم أمان عمك عبدالله بن علي ؟ أم أمان أبي مسلم ؟ ؟

فأنت ترى في هذه الرسالة أن كاتبها محمد بن عبدالله عرض فيها نظرية العلويين السياسية والدينية ، وهي أنهم ورثوا الخلافة عن النبي لأن أباهم كان وصي النبي ، ولأن أمهم بنت النبي ، وما كان لغيرهم أن يلي الخلافة وهم أحياء . ثم أخذ بعد ذلك يفتخر بقرايته من النبي ومكانته منه في الإسلام وفي الجاهلية : وبهذه الكرامة التي خص الله بها أهل البيت . ثم ذكر أنه ابن خير الأخيار وخير الأشرار ، وخير أهل الجنة وخير أهل النار . أراد أبا طالب الذي مات ولم يسلم ، فيروى أنه أقل أهل النار عذاباً لما قام به نحو النبي من واجب العطف والرعاية . ثم ختم رسالته بفقرة بلغت من القوة مبلغاً عظيماً ، حتى إن المنصور لم يستطع لها دفعا ، لأنها كانت من الحق بحيث لا يمكن دفعها . هذه الفقرة التي يذكر فيها خيانة المنصور لقوم استأمنوه فأمنهم ، ثم غدر بهم ، ونقض عهده ، وأخذهم على غرة وهم عزل من كل سلاح . وقد وقع هذا الخطاب وقوع الصاعقة في قصر المنصور ، فاهتم به اهتماماً كبيراً ، وانتدب الكتاب والأمرأه للرد عليه ، ولكنهم لم يوفقوا إلى إرضائه فيما كتبوا ، فتولى الرد بنفسه ، وأملى هذه الرسالة .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين ، إلى

محمد بن عبد الله : أما بعد ، فقد بلغنى كلامك ، وقرأت كتابك ، فإذا جل
نحرك بقراءة النساء ، لتضل به الجفاسة والغوغاء : ولم يجعل الله النساء
كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة والأولياء : لأن الله جعل العم أبا وبدأ به
في كتابه على الوالدة الدنيا ، ولو كان اختيار الله لمن على قدر قرابتهن
كانت آمنة أقربهن رحما ، وأعظمهن حقا ، وأول من يدخل الجنة غدا ،
ولكن اختيار الله لحلقه على علمه لما مضى منهم واصطفائه لهم .

وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق
أحدا رزق الإسلام ، لا بنتا ولا ابنا . ولو أن أحدا رزق الإسلام
بالقرابة ، رزقه عبد الله أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة : ولكن
الأمر لله يختار لدينه من يشاء : قال الله عز وجل : إنك لا تهدي من
أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين . ولقد بعث
الله محمدا عليه السلام وله عمومة أربعة ، فأنزل الله عز وجل : وأنذر
عشيرتك الأقربين . فأنذرهم ودعاهم ، فأجاب اثنان : أحدهما أبي :
وأبي اثنان : أحدهما أبوك ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه
وبينهما إلا ولا ذمة ولا ميراثا .

وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابا ، وابن خير الأشرار ،
وليس في الكفر بالله صغير ، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير . وليس
في الشر خيار : ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار ، وسترده
فتعلم . « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » .

أما ما فخرت به من فاطمة أم علي ، وأن هاشما ولده مرتين ، ومن فاطمة
أم حسن وأن عبد المطلب ولده مرتين وأن النبي صلى الله عليه وسلم ولدك

مرتين ، فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلبده هاشم إلا مرة ، ولا عبد المطلب إلا مرة : وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسبا ، وأصرحهم أما وأبا ، وأنه لم تلدك العجم ، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك نخرت على بنى هاشم طرا . وانظر ويحك أين أنت من الله غدا ، فإنك قد تعديت طورك ، ونخرت على من هو خير منك نفسا وأبا ، وأولا وآخر ، إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ولد ولده . وما خيار بنى أهلك خاصة ، وأهل الفضل منهم ، إلا بنو أمهات أولاد . وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من علي بن حسين ، وهو لأم ولد ، وهو خير من جدك حسين بن حسن : وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن علي وجدته أم ولد ، وهو خير من أهلك . ولا مثل ابنه جعفر ، وجدته أم ولد ، وهو خير منك .

أما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى يقول في كتابه : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم » . ولكنكم بنو ابنته . وإنها لقربة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا تجوز لها الإمامة ، فكيف تورث بها ؟ ولقد طلب بها أبوك بكل وجه ، فأخرجها نهارا ، ومرضها سرا ، ودقها ليلا ، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما . ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين ، أن الجد أبا الأم والخالة لا يرثون . وأما ما نخرت به من علي وسابقته ، فقد حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة ، فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه . وكان في الستة فتركوه كلهم ، دفعا له عنها ، ولم يروا له حقا فيها . أما عبد الرحمن فقدم

عليه عثمان ، وقتل عثمان وهوله مُتَمِّم . وقَاتَلُهُ طَلْحَةُ وَالزَّيْزِر . وَأَبَى سَعْدُ
بَيْعَتَهُ ، وَأَغْلَقَ دُونَهُ بَابَهُ ، ثُمَّ بَايَعَ مُعَاوِيَةَ بَعْدَهُ . ثُمَّ طَلَبَهَا بِكُلِّ وَجْهٍ ،
وَقَاتَلَ عَلَيْهَا ، وَتَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ ، وَشَكَّ فِيهِ شِيعَتُهُ قَبْلَ الْحُكُومَةِ ، ثُمَّ
حَكَّمَ حَكَمَيْنِ رَضِيَ بِهِمَا ، وَأَعْطَاهُمَا عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ ، فَاجْتَمَعَا عَلَى خُلْعِهِ ،
ثُمَّ كَانَ حَسَنٌ ، فَبَاعَهَا مِنْ مُعَاوِيَةَ بِخَرْقٍ وَدِرَاهِمٍ ، وَلَحَقَ بِالْحِجَازِ ، وَأَسْلَمَ
شِيعَتُهُ بِيَدِ مُعَاوِيَةَ ، وَدَفَعَ الْأَمْرَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ ، وَأَخَذَ مَا لَا مِنْ غَيْرِ وَلَا تَهْ
وَلَا حِلَّهْ ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِيهَا شَيْءٌ فَقَدْ بَعَثْتُمُوهُ ، وَأَخَذْتُمْ ثَمَنَهُ . ثُمَّ خَرَجَ
عَمَكَ حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَى ابْنِ مَرْجَانَةَ ، فَكَانَ النَّاسُ مَعَهُ عَلَيْهِ حَتَّى قَتَلُوهُ ،
وَأَتَوْا بِرَأْسِهِ إِلَيْهِ . ثُمَّ خَرَجْتُمْ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ ، فَقَتَلُوكُمْ وَصَلَبُوكُمْ عَلَى جَذْوَعِ
النَّخْلِ ، وَأَحْرَقُوكُمْ بِالنِّيرَانِ ، وَنَفَوْكُمْ مِنَ الْبِلَادَانِ ، حَتَّى قَتَلَ يَحْيَى بْنُ زَيْدٍ
بِخِرَاسَانَ ، وَقَتَلُوا رِجَالَكُمْ ، وَأَسْرَوْا الصَّبِيَّةَ وَالنِّسَاءَ ، وَحَمَلُوهُنَّ بِأَوْطَانِ
مِنَ الْحَامِلِ ، كَالصَّبِيِّ الْمَجْلُوبِ إِلَى الشَّامِ ، حَتَّى خَرَجْنَا عَلَيْهِمْ ، فَطَلَبْنَا
بَثَارَكُمْ ، وَأَدْرَكْنَا بِدِمَائِكُمْ ، وَأَوْرَثْنَاكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ ، وَسَنَيْنَا سَلْفَكُمْ
وَفَضْلَانَا ، فَاتَّخَذْتَ ذَلِكَ عَلَيْنَا حِجَةً ، وَظَنَنْتَ أَنَا ذَكَرْنَا أَبَاكَ وَفَضْلَانَا ،
لِلتَّقْدِيمَةِ مَنَالَهُ عَلَى حِمْرَةِ الْعَبَّاسِ وَجَعْفَرٍ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ كَمَا ظَنَنْتَ . وَلَكِنْ
خَرَجَ هَؤُلَاءُ مِنَ الدُّنْيَا سَالِمِينَ ، مُتَسَلِّبِينَ مِنْهُمْ ، مُجْتَمِعِينَ عَلَيْهِمْ بِالْفَضْلِ ،
وَابْتَلَى أَبُوكَ بِالْقِتَالِ وَالْحَرْبِ ، وَكَانَتْ بَنُو أُمَيَّةَ تَلْعَنُهُ كَمَا تَلْعَنُ الْكُفْرَةَ
فِي الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ ، فَاحْتَجَجْنَا لَهُ ، وَذَكَرْنَا لَهُمْ فَضْلَهُ ، وَعَنْفَنَاهُمْ وَظَلَمْنَاهُمْ
بِمَا نَالُوا مِنْهُ . وَلَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ مَكْرَمَتَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ سَقَايَةُ الْحَجِيجِ
الْأَعْظَمِ ، وَوَلَايَةُ زَمْزَمَ ، فَصَارَتْ لِلْعَبَّاسِ مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِ ، فَتَارَعْنَا فِيهَا

أبوك . فقضى لنا عليه عمر ، فما نزل عنها في الجاهلية والإسلام . ولقد قحط أهل المدينة . فلم يتوسل عمر إلى ربه ، ولم يتقرب إليه إلا بأبينا . حتى نعتهم الله وسقام الفيت . وأبوك حاضر لم يتوسل به . ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غيره . فكان وارثه من عمومته . ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم فلم ينله إلا ولده . فالسقاية سقايته ، وميراث النبي له ، والخلافة في ولده . فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا إسلام ، في دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه ومورثه . وأما ما ذكرت من بدر ، فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله ، وينفق عليهم ، للأزمة التي أصابته ، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها ، لمات طالب وعقيل جوعا ، أو يلحسا جفان عتية وشيبة ، ولكنه كان من المطعمين ، فأذهب عنكم العار والسبة ، وكفاكم النفقة والمؤونة ، ثم قدى عقيل يوم بدر ؛ فكيف تفخر علينا وقد علمناكم في الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وحزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا بشاركم فأدر كنا منه ما عجزتم عنه ، ولم تدركوا إلا أنفسكم . والسلام عليك ورحمة الله . .

وقد أتيت بهاتين الرسالتين ، لأضع أمام القارىء صورة من حرب الأقالام ، وهي لم تكن أقل عنفا وشدة من حرب السهام . وكما كانت رسالة محمد بن عبد الله قوية جدا ، كذلك كانت رسالة المنصور في غاية

القوة ، ومنتهى الشدة ، فاستطاع أن يرد على خصمه رداً مفجهاً ، وأن يهدم مفاخر العلويين هدماً تاماً ، ويقيم على أنقاضها مفاخر العباسيين ، وأن يقضى على نظرية العلويين في الحكم قضاءً مبرئاً . مدللاً على قوله بالقرآن والسنة والإجماع : فبين أن المم أحق بالوراثة من البنت ، وأن العباس قد ورث النبي ، فطبيعي أن يرثه أبناؤه من بعده . وذكر المنصور أن العلويين إن كان لهم بعض حق فيها ، فقد باعه حسن المعاوية بخرق ودراهم ، وغير العلويين بشكرانهم الحميل ، وكفرهم النعمة . فقد نهض العباسيون وجاهدوا في سبيل الشار لهم ، حتى نصرهم الله ووفتهم ، وأدركوا الثار ، وأذلوا الأمويين ، وأذهبوهم من الوجود ، ومع كل هذا لم يجدوا من أبناء عمهم إلا عقوقاً وجحوداً .

(٣) الحديث

والحديث كما تعلم جزء من الأدب . وقد اجتهد العلويون في وضع الأحاديث الكثيرة التي تثبت حق علي في الخلافة ، والتي ترفع من شأنه وتعلي من مقامه . وقد بلغت الأحاديث التي وضعها الشيعة آلافاً . ويتضمن كتاب الكافي ، وهو عندهم بمنزلة صحيح البخاري عند السنين ، طرفاً منها . قال ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة " " واعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة ، فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلفة في صاحبهم حملهم ، على وضعها عداوة خصومهم . "

ثم قال : « فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث ، وقال في موضع آخر : « فلما رأت الشيعة ما قد وضعت البكرية أوسعوا في وضع الأحاديث » .

وهكذا ظل القوم يتنافسون في الوضع ، ويتسابقون في ميدان الكذب . وكان المرامون والمستضعفون من الرجال يضعون الأحاديث في فضائل عثمان وغيره من الصحابة ، ويتقربون بها إلى بني أمية ، الذين كانوا يحزلون لهم العطاء ، ويمنحونهم الجوائز والهبات . ثم أخذ الشيعة في وضع أحاديث تقتضي نفاق قوم من أكابر الصحابة والتابعين الأولين وكفرهم وفسقهم ، فقابلهم خصومهم بمطاعن كثيرة في علي وفي ولديه ، ونسبوه تارة إلى ضعف العقل ، وتارة إلى ضعف السياسة ، وتارة إلى حب الدنيا والحرص عليها . ولم يسكت المحدثون الراسخون في علم الحديث عن هذا ، بل ذكروا كثيرا من هذه الأحاديث الموضوعة ، وبينوا وضعها ، وأن رواها غير موثوق بهم . ومثال ذلك ما روى عن علي بن أبي طالب أنه قال :

« خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ مررنا بنخل ، فصاحت نخلة بأخرى هذا النبي المصطفى وعلي المرتضى ، ثم جزناها فصاحت ثانية بثالثة موسى وأخوه هارون ، ثم جزناها فصاحت رابعة بخامسة هذا نوح وإبراهيم ، ثم جزناها فصاحت سادسة بسابعة هذا محمد سيد المرسلين ، وهذا علي سيد الوصيين فتبسم ثم قال يا علي : إنما سمي نخل المدينة صيحانا لأنه صاح بفضلتي وفضلك . وهذا الحديث أورده الإمام السيوطي في كتاب اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة

مرويا عن ابن الجندی ثم ذکر أن ابن الجندی هذا كان شیعيا ضعيفا فی الروایة . ثم أورد السیوطی آراء علماء الحديث فيه وقد أجمعوا علی أنه موضوع .

ومثال آخر وهو ماروی عن محمد بن أبوب ومحمد الأسدی ومحمد ابن یونس الکدیمی « النظر إلى علی عبادة » ذکر السیوطی أن محمد بن أبوب مشهور بروایة الموضوعات ، ومحمد الأسدی ومحمد بن یونس الکدیمی مشهوران بالكذب . وما رواه حفص بن عمر الإیلی من أن النبی قال لعلی حین خرج لغزوة تبوک :

« المدينة »^(١) لا تصلح إلا بی أو بك وأنت منی بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانی بعدی . قال ابن حبان : حفص کذاب یحدث عن الأئمة بالبواطیل .

ولم یکتف العلویون بوضع الأحادیث التي تؤید وجهة نظرهم السیاسية ، بل وضعوا أحادیث تثبت أن علیا اختصه الله بما لم یختص به أحدا من البشر ، ومنحه من العلم والذكاء والشجاعة والحلم وسائر الفضائل ما لم یمنح غیره من الناس . ومثال ذلك ماروی عن ابن عباس أنه قال « قال رسول الله صلی الله علیه وسلم : أنا مدينة العلم وعلی بابها » أنکره ابن الجوزی وقال إنه موضوع .

وقد كان للفرس نصیب وافر فی وضع الأحادیث التي ترفع من شأن

(١) الآلیء المصنوعة فی الأحادیث الموضوعة للسیوطی طبع مصر م ١٧٧ .

على وآله ، وقد أقر بعضهم بذلك ومنهم ميسرة ^(١) بن عبد ربه الذى اعترف بأنه وضع سبعين حديثاً فى فضل على .

ومن أمثلة ما وضعه خصوم الشيعة ماروى من أن يهوديا أتى أبا بكر فقال : والذى بعث موسى وكله تكليماً إني لأحبك ، فلم يرفع أبو بكر رأسه تهاوناً باليهودى ، فهبط جبريل ، وقال : يا محمد : إن العلى الأعلى يقرأ عليك السلام ويقول لك قل لليهودى الذى قال لأبى بكر إني أحبك ، إن الله قد حاد عنه فى النار خلتين ، لا توضع الأنكال فى عنقه ولا الأغلال فى عنقه لحبه أبا بكر ، فأخبره ، فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، وما ازددت لأبى بكر إلا حبا ، فقال « هنيئاً لك ، أحاد الله عنك النار بحذافيرها ، وأدخلك الجنة لحبك أبا بكر » أتى به السيوطى فى كتابه الآنف الذكر . وقد أنكره آئمة الحديث . وحديث آخر روى عن النبى أنه قال « يبعث معاوية يوم القيامة وعليه رداء من نور » ، جزم ابن الجوزى وابن حبان بأنه موضوع .

كثرت وضع الأحاديث كثيرة هائلة . وقد روى عن الإمام أبى حنيفة أنه لم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثاً . ولم يصح عند الإمام مالك إلا ثلثمائة حديث . ولم يصح عند البخارى إلا ٢٦٠٠ من أكثر من ٦٠٠٠ حديث سمعها الناس .

وقد تجاوزوا فى الوضع والكذب دائرة الأشخاص إلى القرآن ،

(١) مختصر علم الحديث لابن كثير هامش ص ٨٣ .

فهذه الآية تشفي من مرض كذا وتلك تذهب الفقر وتجلب الغنى وهكذا .
ومثال ذلك ما روى عن أبي هريرة أنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا حول ولا قوة إلا بالله دواء من تسعة وتسعين داء ، ورووا أن النبي قال : « من كانت له حاجة فليتوضأ وضوءا جيدا ، ثم يلزم موضعا لا يراه أحد فيصلّي أربع ركعات ، يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد عشر مرات ، وفي الثانية فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد عشرين مرة ، وفي الثالثة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاثين مرة ، وفي الرابعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد أربعين مرة . فاذا فرغ قرأ قل هو الله أحد خمسين مرة ، ثم يقول لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم خمسين مرة ثم يستغفر الله سبعين مرة ، فإن كان عليه دين قضى الله دينه ، وإن كان فقيرا أغناه الله ، وإن كان غريبا رده الله إلى أهله ، وإن كان عليه من الذنوب حشو الدنيا يغفر الله له ، وإن لم يكن له ولد فيسأل الله يرزقه ولدا »

وقد انغمس في الكذب والافتراء فريق من عرفوا بالتقوى والورع والنسك والزهد . فترتب على هذا أن الشعوب الإسلامية أصبحت ألعوبة في يد فريق من الناس يسIRONونها وفق أهوائهم ، ويستغلونها لمنفعتهم الخاصة باسم الدين وهم من أبعد الناس عن الدين . وقد أثر هذا في حياة المسلمين وأدى بهم إلى نوع من الذل والعبودية وضرب من التأخر والانحطاط .

(٤) القصص

قيل إن معاوية كتب إلى عماله « أن » انظروا من قبلكم من شيعة عثمان وعبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرمواهم ، واكتبوا إلى بكل ما يروى كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته ، ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلوات والكساء والحباء ويفيضة في العرب منهم والموالي ، فكثرت ذلك في كل مصر وتنافسوا في المنازل والدنيا فليس يحى أحد مردود من الناس عاملا من عمال معاوية فيروى في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقر به وشفعه فلبثوا بذلك حينا ، ولما كثرت الروايات في مناقب عثمان كتب معاوية إلى عماله ليحملوا الناس على الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ولا يتركوا منقبة يرووها أحد من المسلمين في أبي تراب إلا ويأتوا بمناقض لها في الصحابة مفتعلة ، فقرئت كتب معاوية على الناس في مختلف الأمصار فتسابق القوم في اختلاق المناقب وإصاقها بكثير من الصحابة وجدوا في ذلك إلى أبعد حد ، وأشادوا بتلك المناقب على المنابر ودفعوا بما اختلقوا إلى معلى الكتاتيب فعملوا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير حتى حفظوه كما يحفظون القرآن ، وعلوه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم

ولما تولى الحجاج العراق ، واشتدت وطأه على العلويين ، تقرب إليه أهل النسك والصلاح بيغض على وعيبه والطعن فيه ، كما أنهم أثبتوا قدرة

فائقة على الكذب والافتراء فأضافوا قسطا وافرا إلى ما وضعه أسلافهم من الفضائل والمناقب وألصقوها بكثير من زعماء المسلمين الأولين .
فلما رأى العلويون ذلك عمدوا إلى مقابلة هذه الحركة بضدها وبرهنوا على أنهم لا يقلون عن خصومهم في القدرة على الوضع والاختلاق .
فصنعوا المناقب الكثيرة لصاحبهم ، ونسبوا إليه كل فضيلة ، واجتهدوا في ذلك اجتهدا كبيرا .

قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة : وما أقول في رجل تعزى إليه كل فضيلة ، وتتجاذبه كل طائفة ، فهو رئيس الفضائل وينبوعها وأبو عذرها وسابق مضارها ، ومجلى حليتها . كل من بزغ فيها بعده فنه أخذ ، وله اقتنى ، وعلى مثاله احتذى . وقد عرفت أن أشرف العلوم هو العلم الإلهي ، لأن شرف العلم بشرف المعلوم . ومن كلامه عليه السلام اقتبس ، وعنه نقل ، وإليه انتهى ومنه ابتداء . فان المعتزلة الذين هم أهل التوحيد والعدل ، وأرباب النظر ، ومنهم تعلم الناس هذا الفن تلامذته وأصحابه ، لأن كبيرهم وأصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه وأبوه تلميذه عليه السلام . .

ومن خوارق العادات ما رواه صاحب الأغاني^(١) من أن عليا عزم على الركوب ، فلبس ثيابه ، وأراد لبس الخف ، فلبس أحد خفيه ثم هوى إلى الآخر فانقض عقاب من السماء فخلق به ثم ألقاه فسقط منه أسود^(٢) وانساب فدخل جحرا فلبس على بن أبي طالب الخف . وفي ذلك يقول السيد الحميري :

أَلَا يَأْقُومُ لِلْعَجَبِ الْعُجَابِ لَخُفَّ أَبِي الْحُسَيْنِ وَلِلْحُبَابِ
 أَتَى خُفًّا لَهُ فَاَنْسَابَ فِيهِ لَيْتَنَشَرَ رِجْلَهُ مِنْهُ بِنَابِ
 فَخَرَّ مِنَ السَّمَاءِ لَهُ عَقَابُ مِنْ الْعُقْبَانِ أَوْ شِبْهِ الْعَقَابِ
 فَطَارَ بِهِ فَخَلَقَ نُمٌّ أَهْوَى بِهِ الْأَرْضَ مِنْ دُونَ السَّحَابِ
 إِلَى جَحْرِ لَهُ فَاَنْسَابَ فِيهِ بَعِيدِ الْقَعْرِ لَمْ يُرْتَجْ بِنَابِ
 كَرِيهِ الْوَجْهِ أَسْوَدُ ذُو بَصِيصٍ حَدِيدُ النَّابِ أَزْرَقُ ذُو لَعَابِ
 وَدُوفِعَ عَنْ أَبِي حَسَنِ عَلِيٍّ نَقِيعُ سُمَامِهِ بَعْدَ انْسِيَابِ

ولما شاع التدوين وانتشر التأليف ظهرت كتب كثيرة في مناقب
 أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من أصحاب رسول الله . ذكر ياقوت ^(١)
 أن الطبري « رجع إلى طبرستان فوجد الرفض قد ظهر ، وسب أصحاب
 رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أهلها قد انتشر ، فأمل فضاءل أبي بكر
 وعمر حتى خاف أن يجرى على لسانه ما يكرهه فخرج منها من أجل
 ذلك » .

قال ابن أبي الحديد ^(٢) « ولقد كان الفريقان في غيبة عما اكتسباه
 واجترأاه . ولقد كان في فضاءل على عليه السلام الثابتة الصحيحة
 وفضائل أبي بكر المحققة المعلومة ما يغني عن تكلف العصية لهما ، فإن
 العصية لهما أخرجت الفريقين من ذكر الفضائل إلى ذكر الرذائل ،
 ومن تعديد المحاسن إلى تعديد المساويء والمقايح . »

كانت هذه الكتب الكثيرة التي ألقت عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلى مبنية على الخيال ، فيها أساطير وخرافات فهي قصص أدبية فيها لذة كبيرة ومتعة عظيمة . وقد انتشرت هذه القصص بين الجمهور خصوصا مادار منها حول علي وأبنائه وشُغف العامة بها شغفا عظيما وأقبلوا على تلاوتها في مجالس السمر . ومن هذا القبيل قصص كتبت في عصور مختلفة عن آل البيت مثل السيدة زينب حارسة مصر ، والحسن والحسين والسيدة نفيسة والسيدة عائشة والخضر وغير هؤلاء . ثم تجاوز الأمر آل البيت إلى الأولياء والأقطاب ، فوضعت كتب عن السيد البدوي ، والسيد أحمد الرفاعي ، وإبراهيم الدسوقي ، وعبد الرحيم القنائي ، والسيد أبي الحجاج .

وهكذا اجتهد المسلمون شيعة وسنيون في نشر الخرافات والأوهام والأساطير والأباطيل حول زعماء المسلمين من آل البيت وغيرهم فتأثرت بها عقائد العامة وتصوراتهم في العصور المختلفة ، وترتب على ذلك أن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها تركوا الإسلام الصحيح الذي يقوم على التوحيد . واتخذوا أربابا كثيرين يدعونهم من دون الله إذا مسهم الضر .

فترى من هنا أن التشيع قد أخرج نوعا من الأدب كان سببا في الهبوط بالمسلمين إلى هوة سحيقة من التأخر والانحطاط . وقد أفلح الوهابيون في القضاء على كثير من هذه الخرافات في داخل بلادهم ، أما في الأقطار الإسلامية الأخرى فالحال باقية كما هي عليه حتى بين طبقة المتعلمين .

(٥) انتحال القول

ولم يقف أثر التشيع في النثر العربي عند ما قدمناه بل تعداه إلى شيء آخر ، وهو وضع أدباء الشيعة لأقوال وخطب ورسائل وإسنادها إلى أئمتهم وبخاصة علي بن أبي طالب . فقد أخذ ما ينسب إليه من خطب وأمثال وحكم يزداد يوما بعد يوم ، حتى أتى الشريف الرضى فجمع كل ما ينسب إليه في كتاب ضخيم سماه نهج البلاغة . ونخلوه كلاما يخلو من أشيع الحروف في الكلمات وهو حرف الألف . ولا يعقل أن يظهر مثل هذا التكلف قبل عصر العباسيين .

ونخلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالا لم تعرف ولا يعقل أن تعرف قبل ترجمة المفردات الإغريقية بما لها من غرائب النحت والاشتقاق ومثال ذلك : « وإنك أنت الله الذي لم تنه في العقول فتكون في مهب فكرها مكيفا ، ولا في روياي خواطرها فتكون محدودا مصرفا » . ومما ينسب إليه قوله « سلوني قبل أن تفقدوني ، فإن بين كفتي علما جما خبرني به حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقام إليه صعصعة ابن صوحان ، فقال له يا أمير المؤمنين : متى يخرج الدجال ؟ فقال له أقعد يا صعصعة ، فقد علم الله جل ثناؤه مقامك ، ولكن له علامات وهنات وأشباه يتلو بعضها بعضا حذو النعل بالنعل تكون في حول واحد فإن شئت نبأتك بعلاماته . فقال عن ذلك سألتك يا أمير المؤمنين ، قال له : أعقد يديك يا صعصعة . إذا أمارت الناس الصلاة ، وأضاعوا

الامانة ، واستحلوا الكذب ، وأكلوا الربا ، وأخذوا الرشا ، وشيدوا البناء ، واتبعوا الآهواء ، وباعوا الدين بالدنيا ، واستخفوا بالدماء ، وكان الحلم ضعفا ، والظلم نفرا ، والأمراء فجرة ، ووزراؤهم وأمنائهم خونة ، وقرائهم فسقة ، ويظهر الجور ، ويكثر الطلاق وموت الفجاءة ، وحليت المصاحف ، وزخرفت المساجد ، وطولت المنابر ، وخربت القبور ، ونقضت العهود ، واستعملت المعازف ، وشربت الخمر^(١) .

فظاهر من هذه القطعة أنها لا يمكن أن تصدر إلا عن شخص عاش في العصر العباسي الثاني ، حينما انغمس الناس في الترف والنعيم ، فأنشأوا القصور الفخمة ، وأقاموا المساجد العظيمة ، وتأنقوا في بنائها وزخرفوها وبرعوا في زخرفتها . وشملت عنايتهم جميع فروع الحياة من ملابس ومأكل ومسكن . وتفننوا في كتابة المصاحف وتحليتها بالذهب والفضة ، وأبدعوا في ذلك إبداعا عظيما . فأين كل هذا من عصر علي ؟

وعلاوة على ما تقدم فإن أدباء الشيعة وضعوا كثيرا من القطع الأدبية والخطب والرسائل التي تؤيد مذهبهم وتدعم رأيهم أو التي ترفع من شأن علي وأبنائه ، وأجروها على السنة أشخاص مختلفين . ومثال ذلك ما رواه أبو علي القالي^(٢) في كتاب الأمالى من أن معاوية قال لضرار الصدائي : يا ضرار صف لي عليا رضي الله عنه . قال أعفى يا أمير المؤمنين . قال لتصفه . قال : أما إذ لا بد من وصفه ، فكان والله بعيد

(١) نهج البلاغة .

(٢) أمالى القالي ج ٢ ص ١٤٩ .

المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته ، وكان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن . كان فينا كأحدنا ، يحببنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استبدأناه ، ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله . وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه وقد مثل في محرابه ، قابضا على لحيته ، يتململ يتململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين . ويقول يا دنيا غرى غرى . إلى تعرضت ؟ أم إلى تشوفت ؟ هيهات هيهات قد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها . فعمرك قصير ، وخطرك حقير . آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ووحشة الطريق . فبكى معاوية ، وقال : رحم الله أبا الحسن . وفي رواية أخرى فبكى معاوية ووكف دموعه على لحيته ما يملكها وجعل ينشفها بكمه : وقد اختنق القوم بالبكاء ، وقال رحم الله أبا الحسن . كان والله كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذبح واحدها في حجرها .

أما بعد ، فهل كان معاوية يجهل عليا ويحتاج إلى من يصفه له ؟ كلا ! لقد كان معاوية يعرف عليا معرفة جيدة ولا يجهل شيئا من أخلاقه وعاداته .

ثم إنك ترى بعد ذلك أن معاوية ومن معه بكوا حتى كادوا

يُخْتَنِقُونَ مِنَ الْبُكَاءِ ، تَدْفَقَتْ دُمُوعُهُمْ ، وَانْهَمَرَتْ عِبْرَاتُهُمْ . ثُمَّ تَرَى
مَعَاوِيَةَ يَقُولُ : رَحِمَ اللَّهُ أَبَا الْحَسَنِ .

وَقَدْ سَبَقَ لَكَ أَنْ عَرَفْتَ أَنَّ مَعَاوِيَةَ كَانَ يُوصِي عَمَالَهُ بِأَنْ يَخْتَسِمُوا
خُطْبَهُمْ فِي الْمَسَاجِدِ بِسَبِّ عَلِيٍّ وَآلِ بَيْتِهِ وَالتَّرْحِمِ عَلَى عُثْمَانَ وَالِاسْتِغْفَارِ لَهُ .
قَالَ مَعَاوِيَةُ لِلْمَغِيرَةِ : لَا تَتَّحِمِ عَنْ شَتْمِ عَلِيٍّ وَذَمِّهِ ، وَالتَّرْحِمِ عَلَى عُثْمَانَ
وَالِاسْتِغْفَارِ لَهُ وَالْعَيْبِ عَلَى أَصْحَابِ عَلِيٍّ وَالْإِقْصَاءِ لَهُمْ وَتَرْكِ الْإِسْتِمَاعِ لَهُمْ
وَيَاطِرَاءِ شِيعَةِ عُثْمَانَ وَالْإِدْنَاءِ لَهُمْ وَالِاسْتِمَاعِ لَهُمْ ، وَقَدْ قَتَلَ كَثِيرِينَ مِنْ
رَفْضَاؤِهِ أَنْ يَتَبَرَّأُوا مِنْ عَلِيٍّ .

فَإِذَا مِنَ السَّهْلِ عَلَيْنَا أَنْ نَدْرِكَ أَنَّ هَذِهِ الْقِطْعَةُ مَوْضُوعَةٌ ، وَقَدْ
أَخْفَقَ وَاضِعُهَا فِيمَا أَرَادَ وَلَمْ يُوفِّقْ فِيمَا سَعَى .

وَقَدْ أَفْرَدَ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِي كِتَابِ الْعَقْدِ الْفَرِيدِ فَصْلًا خَاصًا لِلْوَأَفِدَاتِ
عَلَى مَعَاوِيَةَ مِنْ نِسَاءِ زُعَمَاءِ الشَّيْعَةِ اللَّاتِي قَتَلَ أَزْوَاجَهُنَّ فِي الْحَرْبِ ، وَمِنْ
الْوَأَفِدَاتِ عَلَيْهِ سَوْدَةُ ابْنَةُ عِمَارَةَ ، وَبِكَارَةِ الْهَلَالِيَةِ وَالزَّرْقَاءِ ، وَأُمُّ الْخَيْرِ
بِنْتُ مَرْعَشٍ . وَقَدْ رَوَى الشَّعْبِيُّ أَقْوَالَ هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ مَعَ مَعَاوِيَةَ ، وَفِيهَا
مَدْحٌ لِعَلِيٍّ وَاعْتِذَارٌ لِمَعَاوِيَةَ وَطَلَبٌ الصَّفْحِ وَالْعَفْوِ . وَتَنْتَهَى هَذِهِ
الْأَقْوَالُ بِأَنْ يُسْأَلَ مَعَاوِيَةَ كَلَامُهُنَّ عَنْ حَاجَتِهَا وَيُجْزَلَ لَهَا الْعَطَاءُ
وَيُرَدَّهِنَّ إِلَى دِيَارِهِنَّ إِلَّا أُرْوَةَ بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ فَإِنَّهَا لَمْ تَسْأَلْهُ شَيْئًا
وَانْصَرَفَتْ وَهِيَ غَاضِبَةٌ نَاقِمَةٌ ، سَاخِطَةٌ عَلَى الدَّهْرِ مَا فَعَلَ بِآلِ عَلِيٍّ . وَنَحْنُ
مُضْطَرُونَ إِلَى الشُّكِّ فِي صِحَّةِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ لِأَنَّهَا أَتَتْ عَنْ طَرِيقِ الشَّعْبِيِّ
وَهُوَ شَيْعِي يَكْرَهُ الْأُمَوِيِّينَ وَقَدْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْعَثِ

أيام الحجاج وعفا عنه بنو أمية أخيرا ، والشيعه مشهورون بالكذب والاختلاق . أنظر إلى كثير حين يقول في محمد بن الحنفية

هو المهدي خبرناه كعب أخو الأخبار في الحقب الخوالي فلما قيل هل رأيت كعبا . قال : لا ، قيل له فلم قلت خبرناه كعب قال : بالتوهم .

وفضلا عما تقدم فإن الشعبي كان يشرب الخمر ، ولم يكن متمسكا بأهداب الدين والفضيلة .

ولعل من أروع ما أتى به صاحب العقد الفريد المناظرة بين المأمون والعلماء واحتجاجه عليهم في فضل علي . فقد روى أن المأمون جمع أربعين عالما من المتفقيين في الدين وكان على رأسهم إسحاق بن إبراهيم ابن إسماعيل بن حماد بن زيد . وبدأ المأمون حديثه معهم بقوله : إن أمير المؤمنين يدين الله على أن علي بن أبي طالب خير خلفاء الله بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأولى الناس بالخلافة له . وهذه المناظرة طويلة وممتعة فليرجع إليها القارىء إن شاء . وهى من غير شك من وضع أحد دعاة الشيعة . وقد أورد ابن عبد ربه في مكان آخر ما نصه : قال المأمون لعلى بن موسى : علام تدعون هذا الأمر ، قال : بقرابة على وفاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له المأمون : إن لم تكن إلا القرابة فقد خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بيته من هو أقرب إليه من على أو من هو فى تعدده . وإن ذهبت إلى قرابة فاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الأمر بعدها للحسن والحسين .

فقد أبترهما على حقهما وهما حيان صحيحان فاستولى على مالا حق له فيه فلم يجد علي بن موسى جواباً .

فالكلام الذي نسب إلى المأمون في فضل علي وإن كان من وضع الشيعة أنفسهم إلا أن الثابت أن المأمون كان يميل إلى العلويين ، وقد عهد بولاية العهد من بعده إلى علي بن موسى الذي سبق ذكره ولكن هذا مات قبل أن يتولى مقاليد الأمور وقد ادعى الشيعة أنه مات مسموماً ، وربما كان هذا صحيحاً ، فلعل المأمون رأى رأياً ثم بدا له غيره فتخلص من علي بأن دس له السم . والدليل على ذلك أن المأمون أجرى ولاية العهد بعد وفاة علي في العباسيين مع أنه كان قادراً على اختيار شخص آخر من العلويين لو أنه ثبت على رأيه الأول .

الفصل الثاني

خطباء الشيعة

الإمام علي

مولده : ولد قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة . وكانت ولادته بمكة
بالكعبة . وفي ذلك يقول السيد الحميري :

ولدته في حرم الإله وأمنه والبيت حيث فناؤه والمسجد
ينضاء طاهرة الثياب كريمة طابت وطاب وليدها والمولد
في ليلة غابت نحوس نجومها وبدت مع القمر المنير الأسعد
مالف في خرق القوابل مثله إلا ابن آمنة النبي محمد

ثقافته وتهذيبه : حفظ الإمام علي القرآن حفظاً جيداً ووعى الحديث
وتفقه في الدين ، وتأثر فصاحة الرسول وبلاغته ، كما وقف على كثير
من شعر من سبقه من الشعراء ، فلا عجب أن كان فارساً من فرسان
البلاغة ، وعلماً من أعلام البيان . قال الأستاذ محمد حسن نائل المرصني^(١)
« بهذه الخصال الثلاث — يعني جمال الحضارة الجديدة ، وجلال البداوة
القديمة ، وبشاشة القرآن الكريم — امتاز الخلفاء الراشدون . ولقد
كان المجلي في هذه الحلقة على صلوات الله عليه . وما أحسبني أحتاج في
إثبات هذا إلى دليل أكثر من نهج البلاغة ، ذلك الكتاب الذي أقامه

(١) في مقدمة شرحه لنهج البلاغة .

الله حجة واضحة على أن عليا رضى الله عنه قد كان أحسن مثال حي لتور القرآن وحكمته ، وعلمه وهدايته ، وإعجازه وفصاحته .

وقد سبق أن ذكرنا أن الخطب التي تنسب إلى علي بن أبي طالب جمعت كلها في كتاب ضخيم سمي « نهج البلاغة » . والآن نريد أن نتكلم عن هذا الكتاب الذي هو أثر من أنفس الآثار التي تركها التشيع في الأدب العربي .

نهج البلاغة

كان الكلام الذي ينسب إلى علي مدونا في كثير من الكتب . وقد بقي كذلك حتى جاء الشريف الرضى فحسن له بعض أصدقائه كما قال أن يجمع ما يعزى إلى علي من خطب ومواعظ وحكم ، وما صدر عنه من رسائل . قال في مقدمة النهج : « وسألوني عند ذلك أن أبدأ بتأليف كتاب يحتوى على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في جميع فنونه ، ومتشعبات غصونه من خطب وكتب ومواعظ وآداب ، علما أن ذلك يتضمن من عجائب البلاغة ، وغرائب الفصاحة ، وجواهر العربية ، وثواقب الكلم الدينية والدينية ما لا يوجد مجتمعا في كلام ولا مجموع الأطراف في كتاب ... فأجبتهم إلى الابتداء بذلك ، علما بما فيه من عظيم النفع ، وملشور الذكر ومذخور الأجر » .

ترتيب الكتاب : قال الشريف الرضى « ورأيت كلامه عليه السلام يدور على أقطاب ثلاثة : أولها الخطب والأوامر ، وثانيها الكتب والرسائل ، وثالثها الحكم والمواعظ . فأجمعت بتوفيق الله على الابتداء

باختيار محاسن الخطب ، ثم محاسن الكتب ، ثم محاسن الحكم والأدب ، مفردا لكل صنف من ذلك بابا ، ومفصلا فيه أوراقا لتكون مقدمة لاستدراك ماعساه يشذ عن عاجلا ، ويقع إلى آجلا . وإذا جاء شئ من كلامه عليه السلام الخارج في أثناء حوار ، أو جواب سؤال ، أو غرض آخر من الأغراض في غير الأنحاء التي ذكرتها وقررت القاعدة عليها نسبته إلى أليق الأبواب به ، وأشدّها ملاءمة لغرضه . وربما جاء فيما أختره من ذلك فصول غير متسقة ، ومحاسن غير منتظمة ، لأنني أوردت النكت واللمع ، ولا أقصد التتالي والنسق .

محتوياته : ضم كتاب نهج البلاغة بين دفتيه ٢٤٢ خطبة وكلاما و ٧٨ كتابا ورسالة و ٤٩٨ كلمة من روائع الحكم وجوامع الكلم .
شروحه : شروح هذا الكتاب تليف على الحسين . والمعروف منها الآن لدى الناس :

١ — شرح ابن أبي الحديد . وهو عبد الحميد بن هبة الله المدائني المشهور بابن أبي الحديد . ولد عام ٥٨٦ هـ وتوفي عام ٦٥٦ هـ أهدها إلى الوزير ابن العلقمي رئيس الشيعة ببغداد في ذلك الوقت ، وفي أيام هذا الوزير زالت الخلافة العباسية من الوجود . وابن أبي الحديد وإن ادعى أنه معترلي إلا أني أشك في هذا الإدعاء وأعتقد أنه كان شيعيا متعصبا . وقد طبع هذا الشرح بمصر عام ١٣٢٩ بمطبعة الحلبي . وهو أشهر الشروح التي ظهرت لهذا الكتاب .

٢ — شرح كمال الدين بن ميثم التجراني . وهو من علماء القرن

السابع الهجرى . قضى شطرا من حياته ببغداد ، وقد جاء فى مقدمة شرحه « جعلت هذا الكتاب ، بعد كتاب الله وكلام رسوله ، مصباحا أستضى به فى الظلمات ، وسلمنا أعرج به إلى طبقات السموات ، وقد فرغ منه فى رمضان من عام ٦٧٧ هـ . وطبع ببلاد فارس سنة ١٢٧٤ هـ ويقع فى نحو أربعائة صفحة من الحجم الكبير .

٣ — شرح ميرزا حبيب الله بن محمد بن هاشم الهاشمى العلوى الموسوى الأذربجائى . وهو من علماء إيران . كان حيا فى عام ١٣٠٣ هـ . وقد أهدى شرحه إلى شاه إيران مظفر الدين خان . وهذا الشرح ضخيم جدا فى أربعة أجزاء من الحجم الكبير يتألف كل جزء من أربعائة صفحة . طبع ببلاد فارس عام ١٣٥١ هـ وأطلق عليه اسم « منهاج البراعة وشرع الفصاحة » .

٤ — شرح الشيخ محمد عبده وهو لا يقاس بالنسبة لغيره من الشروح إذ اقتصر فيه صاحبه على إيضاح الصعب من المفردات .

لقد اهتم أدباء الشيعة بشرح هذا الكتاب اهتماما كبيرا ، وبالغوا فى الإسهاب والتطويل ، وملتوا شروحهم بالخرافات والخزعبلات التى تضحك الشكلى .

منزله : ورد فى مقدمة شرح حبيب الله لكتاب نهج البلاغة مانصه « هو كتاب فى الاتقان تلو الفرقان ، لكونه مواعظ أمير المؤمنين عليه السلام ، وكلماته المشهورة على لسان المسلمين ، المشتعلة على اثبات

الصانع ، وإظهار البدايع ، والتوحيد بالبرهان القاطع ، والبيان النافع والحكمة والموعظة الحسنة ، والقصص والأمثال . .

وقال محمد حسن نايل المرصني : «اجتمع لعل (ع) في هذا الكتاب ما لم يجتمع لكبار الحكماء ، وأفذاذ الفلاسفة ، ونوابغ الربانيين من آيات الحكمة السامية ، وقواعد السياسة المستقيمة ، ومن كل موعظة باهرة ، وحجة بالغة تشهد له بالفضل وحسن الأثر . خاض على في هذا الكتاب لجنة العلم والسياسة والدين ، فكان في كل هذه المسائل نابغة مبرزاً . ولئن سألت عن مكان كتابه من الأدب بعد أن عرفت مكانه من العلم ، فليس في وسع الكاتب المسترسل ، والخطيب المصقع ، والشاعر المفلق أن يبلغ الغاية في وصفه ، والنهاية في تقريره . .

وقال محمد عبده « تأملت جملاً من عباراته من مواضع مختلفات ، وموضوعات متفرقات . فكان يخيل لي في كل مقام أن حروبا شبت ، وغارات شنت . وأن للبلاغة دولة ، ولل فصاحة صولة ، وأن للأوهام عرامة ، وللريب دعارة ، وأن جحافل الخطابة ، وكتائب الذرابة ، في عقود النظام ، وصفوف الانتظام تنافح بالصفيح الأبلج ، والقويم الأملج وتمتلج المهج بروائع الحجج ، فتغل من دعارة الوسوس ، وتصيب مقاتل الخوانس ، فما أنا إلا والحق منتصر ، والباطل منكسر ومرج الشك في خمود ، وهرج الريب في ركود . وأن مدبر تلك الدولة وباسل تلك الصولة هو حامل لوائها الغالب ، أمير المؤمنين على ابن أبي طالب .

« بل كنت كلما انتقلت من موضع إلى موضع ، أحس بتغير المشاهد

وتحول المعاهد . فتارة كنت أجدنى فى عالم يعمره من المعانى أرواح
عالية ، فى حلل من العبارات الزاهية ، تطوف على النفوس الزاكية ،
وتدنو من القلوب الصافية توحى إليها رشادها ، وتقوم منها مرادها ،
وتنفربها عن مداخل النزال إلى جواد الفضل والكمال . وطورا كانت
تنكشف إلى الجمل عن وجوه باسرة ، وأنياب كاشرة ، وأرواح فى أشباح
النور ومخالب النور ، قد تحفرت للوثاب ثم انقضت للاختلاب ،
نخلبت القلوب عن هواها ، وأخذت الخواطر دون مرماها . واغتالت
فاسد الأهواء ، وباطل الآراء . .

أما بعد ، فقد أتيت هنا بأقوال ثلاثة رجال فى كتاب نهج البلاغة
وهى قطع مديح التى بغير حساب ظنا من كاتبيها أنهم يظفرون برضا الله
ورسوله إن هم أزجوا هذا المديح . ولم يحاول أحد منهم أن يتناول النهج
تناولا علميا يعود على القارىء بالنفع .

بحث وتحقيق : وقد رأيت لزاما على فى هذا المقام أن أتناول نهج
البلاغة بالبحث والتحقيق سالكا فى ذلك سبيل العلماء الذين يفيدون
القراء بما يقدمون لهم من حقائق ناطقة . أما هؤلاء الذين لا هم لهم إلا
إرسال المدح والثناء فهمتهم هيئة لينة ، فما أيسر أن تقول « هو كتاب فى
الاتقان تلو الفرقان » ، وما أسهل أن تنمق فى مدحه الألفاظ كما نتمقها
الشيخان حسن نايل المرصنى ومحمد عبده . ولكن هذا لا يفيد القارىء .
فى كثير أو قليل . وبما أنى لم أخرج هذا الكتاب لأمدح فيه أو أقدح ،

بل حرصت فيه كما يرى القارىء على إظهار الحقائق وإبرازها ، لذلك لم أسر في الطريق التي سار فيها هؤلاء المادحون .

صاحب النهج : في كتاب نهج البلاغة أمور كثيرة تجعلنا نشك في نسبة أكثر ما فيه إلى الإمام على . وهذا رأى سبقنا إليه القدماء . قال ابن أبي الحديد « كثير من أرباب الهوى يقولون إن كثيرا من نهج البلاغة كلام محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة . وربما عزوا بعضه إلى الرضى أبي الحسين وغيره » .

غير أن القدماء لم يشرحوا لنا أسباب الشك . أجل ! لقد أبدوا ارتياهم ثم صمتوا . وقد رأيت لزاما على أن أتناول أسباب الشك في نسبة ما في النهج إلى عليّ بشيء من التفصيل .

أسباب الشك :

(أولا) سبق أن ذكرنا أن نهج البلاغة قد ضم بين دفتيه ٢٤٢ خطبة وكلاماً ، ٧٨ كتاباً ورسالة ، ٤٩٨ حكمة . وهذا العدد الهائل لم يدون إلا في العصر العباسي . وليس من شك في أن حفظ هذا المقدار الضخم من الأمور المتعذرة . ومن هذه الخطب ما هو طويل جدا وليس من السهل وعيه وتذكر ألفاظه بعد أجيال . فقد بلغ عهد عليّ للأشتر النخعي مائتين وخمسين سطرا . وبلغت بعض خطبه مائتي سطر ، وبعضها ينقص قليلا عن المائتين . وإذا علمنا أن القرآن على عظيم خطره ، وجليل

شأنه كان مظنة أن يضيع لو لم يتداركه المسلمون الأولون ، رأينا أنفسنا مسوقين إلى النظر بعين الارتياب فيما جاء مذسوبا إلى علي في هذا الكتاب . وما الداعي إلى كتابة مثل هذا العهد المفرط في الطول ولم يكن الأشر غريبا عن علي بل كان من أقرب الناس إليه . ولم يسبق أن كتب أحد من الخلفاء عهدا في مثل هذا الطول ؟ ؟

(ثانيا) إذا ألقيت نظرة على الخطب المنسوبة لعلي لم تتمالك نفسك من الضحك ، وذلك لما جاء في كثير منها من أمور وقعت بعد عصر علي كقيام الدولة الأموية ، وسقوطها والقضاء على الأمويين قضاء مبرما بغير رحمة ولا شفقة ، وقيام دولة بني البعاس ، وظهور الفتن والقلاقل وانتشار الحروب والثورات ، وترك الناس للدين وانغماسهم في الترف والنعيم . وقد سبق لنا أن أوردنا مثالا لذلك عند الكلام على « انتحال القول » ولا نرى بأساً من أن نورد للقارىء مثالا آخر ليزداد إيمانا على إيمان إن لم يكن قد اطلع على النهج . فما ينسب إليه قوله « فوالذى نفسى بيده لا تسألونى عن شىء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها^(١) وقائدها ، وسائقها ومناخ ركاها ومحط رحالها ومن يقتل من أهلها قتلا ، ويموت منهم موتا ،

ألا إن أخوفَ الفتنِ عندى عليكم فتنةُ بنى أميةَ ، فإنها فتنةٌ عمياء مظلمة ، عمت خُطتها وخَصَّتْ بليتها ، وأصاب البلاء من أبصر فيها ، وأخطأ البلاء من عمى عنها . وإيم الله لتجدنَّ بنى أميةَ لكم أربابَ سوءٍ بعدى كالنَّابِ الضروسِ تعذِّمُ بفيها ، وتخبِطُ بيدها ، وتزبنُ برجلها

وتمنعُ درَّها . لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعاً لهم أو غير ضائرٍ بهم . ولا يزالُ بلاؤُهُم حتى لا يكون انتصارُ أحدكم منهم إلا كانتصارِ العبد من ربِّه ، والصاحب من مُستصحبِهِ . تردُّ عليكم فتنتُهُم شوهاءٌ مخشَّيةٌ ، وقطعا جاهليةٌ ، ليس فيها منارٌ هُدى ، ولا علم يُرى ، نحن أهل البيت فيها بمنجاةٍ ، واسنا فيها بدعة . ثم يفرجُها الله عنكم كتفريج الإديم بمن يسومُهُم خسفاً ، ويسوقُهُم غنفاً ، ويسقيهم بكأسٍ مُصبرةٍ ، لا يعطيهم إلا السيف ، ولا يجالسُهُم إلا الخوف . فعند ذلك تودُّ قریشٌ بالدينار وما فيها لو يروني مقاماً واحداً ، ولو قدَّرَ جزرٌ جزوراً قبل منهم ما أطلب اليوم بعضه فلا يُعطونني .

وأنت واحد خطباً كثيرة من هذا النوع . وهي من غير شك موضوعة ومحمولة على الإمام على الذي لم يكن علام الغيوب . فهل هذه الخطب بلغت من الإتقان ما يجعلها تلو الفرقان؟؟ وهل ترى فيها ما رآه محمد عبده حين يقول « وأن جحافل الخطابة ، وكتائب الذرابة في عقود النظام ، وصفوف الانتظام تنافح بالصفيح الأبلج ، والقويم الأملج وتمتلج المهج بروائع الحجج ، فأين هو القويم الأملج؟؟ وأين هي روائع الحجج؟؟

(ثالثاً) وأمر ثالث يجعلك تزداد شكاً وارتياباً وهو أن كثيراً من الخطب اشتمل على علوم لم تعرف في المجتمع الإسلامي إلا بعد عصر على بزم طويل ، كدقائق علم التوحيد ، وأبحاث الرؤية والعدل ، والتوسع في كيفية كلام الخالق وابتعاده عن صفات الجسم وكيفياته ، وتنزهه عن مجانسة مخلوقاته ، كما تناولت موضوعات وصفية لم يطرقها

المسلمون إلا في عصور متأخرة كوصف النملة والخفاش والطاووس .
ومثال ذلك قوله من خطبة يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق
آدم والحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون ، ولا يحصى نعماء العادون ،
ولا يؤدي حقه المجتهدون . الذي لا يدركه بعد الهمم ، ولا يناله غوص
الفطن . الذي ليس لصفته حد محدود ، ولا نعت موجود : ولا وقت
معدود ، ولا أجل ممدود . فطر الخلائق بقدرته ، ونشر الرياح برحمته ،
ووتد بالصخور ميدان أرضه : أول الدين معرفته ، وكال معرفته التصديق
به ، وكال التصديق به توحيدده ، وكال توحيدده الإخلاص له وكال
الإخلاص له ، نفي^(١) الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ،
وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة فمن وصف الله سبحانه وتعالى فقد
قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله ومن
جهله فقد أشار إليه ومن أشار إليه فقد حده ، ومن حده فقد عده . ومن
قال فيم فقد ضمنه ، ومن قال علام فقد أخلى منه . كائن لا عن حدث ،
موجود لا عن عدم ، مع كل شيء . لا بمقارنة وغير كل شيء . لا بمزايلة .
فاعل لا بمعنى الحركات والآلة ... الخ .

وفي هذه الخطبة اصطلاحات لم تعرف في عصر الإمام علي ، بل
عرفت بعده بقرون ، كما أن التعبيرات التي انطوت عليها هذه الخطبة لم تظهر
إلا على أيدي علماء الكلام في العصر العباسي . وعلاوة على ما تقدم فإنها
رتبت ترتيباً منطقياً يبدأ بمقدمة تلتهي إلى نتيجة هي نفي الصفات عن الله ،
وهذا أمر كان موضع خلاف شديد بين الفرق الإسلامية ولم يعرف إلا
في أيام العباسيين . فهي بلا ريب موضوعة على الإمام علي ، وهي ليست

(١) هذا كلام أرسطو الذي لم يعرف إلا بعد عصر الترجمة .

في الإتيان تلو الفرقان ، ولا أجد فيها ما وجد محمد عبده من الصفيح الأبلج والقويم الأملج الذي يمتلج المهج بروائع الحجج .

(رابعا) وأمر رابع يجعلك تمنع في الشك وتسرف في الارتياب وهو أنك تجد في خطب كثيرة روحا غريبا عن الإسلام ، فيها تناقض مع أحكام الدين الخفيف وأصوله ، وفيها روح ضار جدا بالمجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية . ترى فيها دعوة إلى الرهينة وترك ما أحل الله من الطيبات في هذه الحياة الدنيا . ومثال ذلك قوله يخاطب شخصا يسمى « نواف » طوبى للزاهدين في الدنيا والراغبين في الآخرة . أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطا ، وتراها فراشا ، وماءها طيبا ، والكتاب شعارا ، والدعاء دثارا ، وقرضوا الدنيا قرضا على منهاج المسيح بن مريم فإن الله عز وجل أوحى إلى عبده المسيح بن مريم أن مر بنى اسرائيل ألا يدخلوا بيتا من بيوتى إلا بقلوب طاهرة ، وأبصار خاشعة ، وأيد نقية . فإنى لا أستجيب لأحد منهم دعوة لأحد من خلق قبله مظلمة . يانوف لا تكونن شاعرا ولا عشارا^(١) ولا شرطيا ولا عريفا^(٢) ولا صاحب كوبة^(٣) ولا صاحب عرطبة^(٤) ،

وليس من المعقول أن يصدر مثل هذا القول من على . وكيف ينهى الناس عن أن يكونوا شعراء ، وهو نفسه كان شاعرا ونسب إليه ديوان مشهور بين الناس ؟ كيف ينهى الناس عن أن يكونوا شعراء والإسلام أباح لهم ذلك ، والنبي كان ممن يطربون للشعر ويحرضون

(٢) منصب دون الرئيس .

(١) الذى يجمع العشور .

(٤) عرطبة : العود وهو من آلات الضرب .

(٣) الكوبة الطبل .

على قوله ؟ ؟ وكيف ينهى على الناس عن أن يكونوا عشارين أو من رجال الشرطة ؟ ؟ ومن يجمع أموال الدولة ومن يسهر على حفظ الأمن والنظام فيها ؟ ؟ وفي هذه الخطبة تحريض على قرض الدنيا على منهاج المسيح بن مريم . وما شأن المسلمين بمناهج المسيح ولهم من سنة رسولهم خير مرشد وأفضل دليل .

لا شك في أن نسبة مثل هذه الخطبة للإمام علىّ تحط من شأنه ، وتضع من منزلته . ونحن نجل الإمام عليا وننزهه عن قول مثل هذه الخطب التي لا أرى أنها في الإتيان تلو الفرقان . ولا أرى فيها ما رآه محمد عبده من الصفيح الأبلج والقويم الأملج الذي يمتلج المهج بروائع الحجج .

(خامسا) وأمر خامس يجعلك تجزم بأن جل ما في النهج ليس لعلّ وهو الاختلاف العظيم في أساليب الخطب . ترى كلاما مرسلا على سجيته بغير تكلف ولا تصنع ومثال ذلك قوله من إحدى خطبه « أنبئت بسرا قد اطلع اليمن ، وإني والله لأظن هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم ، وبمعصيتكم إمامكم في الحق ، وطاعتهم إمامهم في الباطل . . . الخ » .

على حين أنك ترى له نوعا آخر من الخطب يظهر فيه آثار الصنعة والتكلف المزدول ، والحرص الشديد على السجع وغير ذلك مما لم تعرفه العرب في عصر علىّ ، بل عرف في عصور متأخرة جدا ومثال ذلك ما ينسب إليه « الحمد لله المعروف من غير رؤية ، والخالق من غير رؤية . الذي لم يزل دائما قائما إذ لا سماء ذات أبراج ،

ولا حجب ذات أرتاج ، ولا ليل داج ، ولا بحر ساج ، ولا جبل
ذو فجاج ، ولا فج ذو إعوجاج ، ولا أرض ذات مهاد ، ولا خلق
ذو اعتماد .

وقوله في وصف السماء : ونظم بلا تعليق رهوات فرجها ولاحم
صدوع انفراجها ، ووشج بينها وبين أزواجها ، وذال للهابطين
بأمره ، والصاعدين بأعمال خلقه حزونة معراجها ، ناداها بعد إذ هي
دخان فالتحمت عرى أشراجها .

وانظر إلى الحرص على الجناس في قوله : أرسله لإنفاذ أمره ،
وإنهاء عذره ، وتقديم نذره ، وأحصاءكم عددا ، ووظف لكم مددا ،
في قرار خبرة ، ودار عبرة . غرور حائل ، وضوء آفل ، وظل زائل ،
وسناد مائل .

ثم تأمل قوله : فمن أخذ بالتقوى عزبت عنه الشدائد بعد دنوها
واحلوت له الأمور بعد مرارتها ، وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها ،
وأسهلت له الصعاب بعد انصبابها ، وهطلت عليه الكرامة بعد
قحوطها وتحذبت عليه الرحمة بعد نفورها ، وتفجرت عليه النعمة بعد
نضوبها ، ووبلت عليه البركة بعد رذاذها . ترى فقرا متساوية في
عدد كلماتها وفي التزام كلمة بعد ، في كل منها واشتمال كل فقرة على
طباق ، فضلا عن أنها تدور كلها حول معنى واحد . فالآثار الأدبية
التي وصلت إلينا من عصر علي تختلف عن هذا النمط المتكلف اختلافا
كبيرا وتبتعد عنه ابتعادا ظاهرا . وهذا شيء يرغما على رفض نسبة

تلك الخطب إلى الإمام على ، وهي ليست تلو الفرقان في الإلتقان ، ولا أرى فيها ما رآه محمد عبده من الصفيح الأبلج ، والقويم الأملج الذي يمتلج المهج بروائع الحجج .

(سادسا) وأمر سادس يدفعك إلى رفض كثير مما ينسب لعلی ، وهو أنك ترى خطبا كثيرة فيها وصف للحياة الاجتماعية على نحو لم يعرف إلا في عصور متأخرة . ترى في هذه الخطب طعنا على الوزراء والأمراء والحكام والولاة والعلماء والقضاة ، طعنا شديدا في السلوك والأخلاق وفي الذمم والضمائر ، ووصفا للقضاة بالجهل وعدم المعرفة بأحكام الشريعة . ومثال ذلك ما ينسب إليه « إِنَّ أَبْغَضَ الْخَلَائِقِ إِلَى اللَّهِ رَجُلَانِ : رَجُلٌ وَكَّلَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ ، فَهُوَ جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ ، مَشْغُوفٌ بِكَلَامٍ بِدْعَةٍ ، وَدُعَاءِ ضَلَالَةٍ . فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنْ افْتَتَنَ بِهِ ، ضَالٌّ عَنْ هَدًى مَنْ كَانَ قَبْلَهُ ، مُضِلٌّ لِمَنْ اقْتَدَى بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ ، حَمَالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ ، رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ . وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلًا ، مُوضِعٌ فِي جُهَالِ الْأُمَّةِ ، عَادٍ فِي أَغْبَاشِ الْفِتْنَةِ ، عَمٌّ بِمَا فِي عَقْدِ الْهُدَى . قَدْ سَمَّاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِمًا وَلَيْسَ بِهِ . بَكَرٌ فَاسْتَكْبَرَ مَنْ جَمَعَ مَا قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ ، حَتَّى إِذَا ارْتَوَى مِنْ آجِنٍ وَاسْتَنْزَعَ مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ ، جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِيًا ضَامِنًا لِتَخْلِيصِ مَا التَّبَسَّ عَلَى غَيْرِهِ . فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَى الْمُبْهَمَاتِ هَيَّا لَهَا حَشْوًا رَثًا مِنْ رَأْيِهِ ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ . فَهُوَ مِنْ لِبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسْجِ الْعَنْكَبُوتِ لَا يَذَرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ . فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ ، وَإِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ

أصاب ، جاهلٌ خَبَّاطٌ جهالاتٍ ، عاشَ رَكابُ عَشَوَاتٍ ، لَمْ يَعْصَ
عَلَى الْعِلْمِ بِضُرْسٍ قَاطِعٍ ، يُذِرِي الرِّوَايَاتِ إِذْرَاءَ الرِّيحِ الْهَشِيمِ ،
لَا مَلِيءٌ وَاللَّهِ بِإِصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ ، وَلَا هُوَ أَهْلٌ لِمَا فُوضَ إِلَيْهِ .
لَا يَحْسِبُ الْعِلْمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ وَلَا يَرَى أَنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ مَذْهَبًا لغيره ،
وإنْ أَظْلَمَ أَمْرًا اكْتَسَمَ بِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلٍ نَفْسَهُ . تصرُّخٌ مِنْ جَوْرِ
قَضَائِهِ الدَّمَاءِ وَتَعْجُثُ مِنْهُ الْمَوَارِيثُ . إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ
جَهَالًا وَيَمُوتُونَ ضَلَالًا ، لَيْسَ فِيهِمْ سَلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُتِلَى
حَقُّ تِلَاوَتِهِ ، وَلَا سَلْعَةٌ انْفَقَ بَيْعُهَا وَلَا أَغْلَى ثَمَنًا مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ
عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَلَا عِنْدَهُمْ أَنْكَرٌ مِنَ الْمَعْرُوفِ ، وَلَا أَعْرَفٌ مِنَ الْمُنْكَرِ .

وَمَا يَنْسَبُ إِلَيْهِ وَفِيهِ وَصَفٌ لِحَالَةِ الْفَوْضَى الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا الْقَضَاءُ
وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَعْرِفْ إِلَّا فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ « تَرَدُّ عَلَى أَحَدِهِمُ الْقَضِيَّةُ
فِي حَكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ ، ثُمَّ تَرَدُّ تِلْكَ الْقَضِيَّةُ بَعَيْنَهَا عَلَى
غَيْرِهِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِخِلَافِهِ ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ الْقَضَاءُ بِذَلِكَ عِنْدَ الْإِمَامِ الَّذِي
اسْتَقْضَاهُمْ فَيَصُوبُ آرَاءَهُمْ جَمِيعًا . وَاللَّهُمَّ وَاحِدٌ ، وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ .
وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ . أَفَأَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْاِخْتِلَافِ فَأَطَاعُوهُ ؟ أَمْ نَهَاَهُمْ
عَنْ فِعْصُوهُ ؟ أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ دِينًا نَاقِصًا فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِهِ ؟
أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى . . . الخ ، فَإِذَا عَلِمْتَ
أَنَّ الْقَضَاءَ فِي أَيَّامٍ عَلَى كَانُوا مِنَ الصَّحَابَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أُمَّةٌ يَجْتَمِعُونَ
إِلَيْهِمْ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ . وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ آجَنٌ يَرْتَوُونَ مِنْهُ ، بَلْ لَمْ يَكُنْ
لَدَيْهِمْ سِوَى الْقُرْآنِ ، وَلَمْ يَظْهَرْ هَذَا الْاِخْتِلَافُ الْعَظِيمُ الَّذِي نَرَى صُورَتَهُ
فِي هَذِهِ الْخُطْبِ ، قَطَعْتُ بِأَنَّهَا مِنْ وَضْعِ قَوْمٍ عَاشُوا بَعْدَ عَلِيٍّ بَزْمِنِ

طويل ، وكتبوا ما كتبوا ثم نسبوه إلى على اعتقادا منهم بأن فيها ما يرفع شأنه ويسمو بمنزلته . وهى من غير شك ليست فى الإتقان تلو الفرقان . ولم أجد فيها ما وجده محمد عبده من الصفيح الأبلج والقويم الأملج الذى يمتلج المهج بروائع الحجج .

(سابعاً) وأمر سابع يسلمك إلى الريبة فى هذا الكتاب . ترى فيه خطبا كثيرة تروى أمورا لا يقبلها العقل من شأنها لو صحت أن تؤيد حق على فى الخلافة . ومثال ذلك ما ينسب إليه : « ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله ، فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة ، فقال هذا الشيطان أيس من عبادته . إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست ببني ، ولكنك وزير ، وإنك لعلّى خير ، .

وقوله : « ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإن رأسه لعلّى صدرى . ولقد سألت نفسه فى كفى فأمررتها على وجهى ، ولقد وليت غسله صلى الله عليه وآله والملائكة أعوانى فضجت الدار والأفنية ملاً يهبط وملاً يعرج ، وما فارقت سمعى هينمة منهم يصلون عليه ، حتى واريناه فى ضريحه ، فمن ذا أحق به حيا وميتا ، .

وأظن أن القارىء سيضحك معى حينما يقرأ « إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست ببني ولكنك وزير ، وإنك لعلّى خير ، . ومعنى هذا أن علياً كان يسمع الوحي كما يسمعه الرسول ويراها كما يراه الرسول لكنه ليس ببني وإنما هو وزير ، ولا أدري ما وظيفة الوزير هنا وما عمله ؟ . ولا شك فى أنك ستغرق فى الضحك حينما تقرأ « ولقد

وليت غسله صلى الله عليه وآله والملائكة أعوانى فضجت الدار والأفنية ،
ملاً يهبط وملاً يعرج ، ، فالملائكة هنا قد نزلوا من السماء أفواجا
يساعدون الإمام علياً في مهمته وهى غسل رسول الله . ولا جدال فى
أن علياً أعقل بكثير من أن يرسل مثل هذا القول . وليس فى نسبته
إليه ما يشرفه . وكيف يقال بعدئذ إن نهج البلاغة فى الاتقان تلو الفرقان ؟
وهل فى مثل هذا رأى محمد عبده الصفيح الأبلج والقويم الأملج يمتلج
المهج بروائع الحجج ؟ .

(ثامناً) وأمر ثامن يجعلك ترتاب فيما جاء بنهج البلاغة منسوباً
إلى الإمام عليّ . وهو أنك تجمد خطباً طال فى صدرها حمد الله ، وهذه
عادة لم تعرف إلا فى العصر العباسى فى خطب الجمع والأعياد التى تلقى
فى المساجد ، ولم تظهر قط فى أيام عليّ . ومثال ذلك ، الحمد لله كلها وقب
ليل وغسق ، والحمد لله كلها لاح نجم وخفق ، والحمد لله غير مفقود الإناعام
ولا مكافئ الإفضال ، وغير هذا كثير .

(تاسعاً) وأمر تاسع يرييك فيما ورد منسوباً لعليّ فى نهج البلاغة
وهو أنك تجمد خطباً فيها ذكر الوصى والوصاية ، مع أن علياً لم يقل هذا
قط ولم تظهر خرافة الوصى إلا بعد مقتله . ومثال ذلك قوله وقد غنى
آل البيت ، هم أساس الدين ، وعماد اليقين ، إليهم ينفع العالى ، وبهم
يلحق التالى ، ولهم خصائص حق الولاية ، وفيهم الوصية والوراثة ، ،
وقوله ، ومالى لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها فى
دينها لا يقتضون أثر نبي ولا يقتدون بعمل وصي ، ، فهل كانت فى
عصره تلك الفرق التى يشير إليها ؟ أم أنها ظهرت بعده بزمان غير قصير ؟ .

(عاشرا) وأمر عاشر يقودك إلى الريبة في نسبة ما جاء في النهج إلى علي ، وهو أنك تجد خطبا فيها معنى واحد عبر عنه بما يزيد على عشر جمل ومثال ذلك قوله : « لا انفصام لعروته ، ولا فك لحلقته ، ولا انهدام لأساسه ، ولا زوال لدعائمه ، ولا انقلاع لشجرته ، ولا انقطاع لمدته ، ولا عفاء لشرائعه ، ولا جذ لقروعه ، ولا ضنك لطرقه ، ولا سواد لوضحه ، ولا عوج لانتصابه ، ولا عصل ^(١) في عوده ، ولا وعث لفجه ، ولا انطفاء لمصايحه ، ولا مرارة لحلاوته ، فهذا إسهاب ممل وإسفاف لا فائدة منه ولا خير فيه ، وهو بما لم يعرفه المسلمون الأولون .

في الميزان : أما بعد ، فقد وضعنا نهج البلاغة أمامك في الميزان ، وأطلعناك على ما يشككنا في نسبة أكثر ما جاء فيه إلى علي ، وضربنا للناس الأمثال لعلمهم يقتنعون . وهناك خطب قليلة باقية فيها روح على ولكنها لم تسلم من التحريف والتصحيف والتقديم والتأخير والزيادة والنقصان ، وذلك أمر طبيعي في كل ما تأخر تدوينه من الخطب والرسائل وإنك لتجد هذه الخطب القليلة رويت بروايات فيها اختلاف كبير .

أما الأمثال والحكم فمعظمها هندی وفارسی عرفه العرب بعد عصر الترجمة . ولا أدري كيف نسبوها إلى علي ؟ .

خطباء آخرون

كان أئمة الشيعة ينشرون دعوتهم بين الناس سرا، فلم يجدوا أمامهم مجالا للقول فيقولوا، ولا محلا للخطابة فيخطبوا. ولم يظهر بعد على من الخطباء سوى الحسن والحسين. وجل ما ينسب إليهما موضوع. وليت شعري من الذي روى خطبة الحسين في كربلاء وقد استشهد كل من معه من الرجال، ؟؟.

ولفاطمة خطب تنسب إليها وقد رووا عنها كثيرا من الأحاديث، ولعلي بن الحسين رسالة تعرف برسالة الحقوق. وعلى الجملة فقد اجتهد أدباء الشيعة في وضع الخطب والرسائل وجمع الحكم والأمثال والأدعية ونسبتها لأئمتهم.